صفة افريقيا فى المصادر العربية حتى نهاية القرن العاشر الهجرى

للدكتور ايمن فؤاد سيد

بدأت أوربا فى التعرف على الشواطىء الافريقية فى منتصف القرن الخامس عشر عندما بدأ البرتغاليون فى التجارة مع شواطىء غينيا واقامة مستوطنات هناك . ثم تبعهم فى ذلك الألمان ثم الدانماركيون ثم الفرنسيون ثم الانجليز وغيرهم .

وكانت معارف أوربا عن افريقيا حتى ذلك الوقت معارف نظرية تعتمد فى جزء كبير منها على ما نقل الى اللغات الأوروبية من نتاج الجغرافيا العربية. وتزايدت معارف أوروبا عن افريقيا بعد أن تم نقل كتابى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للادريسى و« وصف افريقيا » للحسن بن الوزان (جون ليون الافريقى) الى اللغة الايطالية فى أواخر القرن السادس عشر .

وعلى ذلك فان معارف العرب المسلمين عن افريقيا فى العصور الوسطى كانت أوسع وأدق بكثير من معارف الاوروبيين ، رغم أن معرفتهم العملية بافريقيا لم تتعدى اطلاقا ما كان يطلق عليه « دار الاسلام » أو المناطق المجاورة لها والتى كان التجار المسلمون يترددون عليها .

وترجع معرفة العرب بافريقيا الى ما قبل ظهور الاسلام وكانت تتلخص فيما كان يمكنهم الحصول عليه من معلومات عن طريق التجارة عبر البحر الأحمر مع الحبشة . أما الاتصالات المباشرة للعرب مع افريقيا فقد بدأت منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الاسلامية . فلم تكد تمض سبع سنوات على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا وقد فتح المسلمون مصر البيزنطية فى سنة ١٩ هـ كنتيجة حتمية لفتحهم الشام وفلسطين ، ثم امتد نفوذ العرب المسلمين بعد ذلك الى ممالك النوبة المسيحية التى ظلت لمدة سبعة قرون حاجزا أمام التوسع العربى الاسلامى فى هذا الاتجاه ، وفى مقابل استمرار

حالة السلام بينهم وبين الدولة الاسلامية كان عليهم أن يدفعوا لها ضريبة من المال والرؤوس تعرف بالبقط(١) .

وبعد فتح مصر اكتمل الفتح الاسلامى لبقية أفريقيا الشمالية على فترات متلاحقة . ولم يكد القرن الهجرى الأول يشرف على نهايته الا وكان العرب المسلمون قد أتموا فتح الشمال الافريقى بكماله . ولكن بدلا من أن يتجه العرب جنوبا فى الأراضى القاحلة جنوب الصحراء ، اتجه الجيش الاسلامى الفاتح مدعما بالعناصر البربرية شمالا عابرا المضيق الذى يفصل بلاد المغرب عن شبه جزيرة ايبريا والذى يحمل الى اليوم اسم الفاتح الاسلامى (مضيق جبل طارق) ليمدوا النفوذ الاسلامى الى جنوب غرب أوروبا .

أما معرفة العرب المباشرة بافريقيا الغربية فالفضل فيها يرجع الى تجار الشمال الافريقى الذين قاموا بالاشتراك مع بعض العرب والفرس بفتح باب التجارة والدعوة مع غرب افريقيا فى العصر الاسلامى . وعن طريق هؤلاء التجار وانتقالهم عبر وادى النيل وعلى طول شواطىء افريقيا الشرقية من جهة وعبر الصحراء من جهة أخرى ، أخذ الكتاب العرب معظم معلوماتهم عن افريقيا السوداء . ولكن الجغرافيين العرب لم يقدموا لنا معلومات مترابطة عن شعوب ودول افريقيا الا فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، وان كنا نجد الكثير من المعلومات النظرية المستمدة من كتب الجغرافيا اليونانية القديمة متناثرة فى كتابات الموسوعيين الاسلاميين قبل هذا التاريخ .

فحتى القرن الرابع الهجرى . كانت المعلومات التى يقدمها الجغرافيون العرب قليلة الوضوح وكثيرا ما توقع الباحث فى الحيرة . وبعد ذلك بدأت الصورة تتضح شيئا فشيئا ، وكانت أكثر المعلومات وضوحا ما يتعلق منها بوادى النيل فيما وراء صعيد مصر ، فقد كان الاهتمام بهذه المواضع راجع الى جانب الأهمية التجارية الى الاهتمامات الدفاعية من أجل حماية الاسلام من الأخطار التى يمكن أن تحدق به من ناحية أعالى النيل .

---

(١) عن هذه الضريبة راجع ، البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٨١—٢٨٢، المسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٢٩ — ١٣٠ ، المقريزى : الخطط : ١٩٩— ٢٠٢ ، Lokkogaard, F., El., ant. «Bakt», I, p. 996.

ففى أواسط القرن الرابع ، وفى أعقاب فتح الفاطميين لمصر ، أرسل القائد جوهر الصقلى واحدا من سكان صعيد مصر يدعى عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى سفيرا له لدى قيرقى ملك النوبة المسيحى يدعوه الى اعادة دفع البقط الى حكام مصر الجدد ، لأنهم كانوا قد امتنعوا عن دفعه فى أواخر الدولة الاخشيدية(٢) ويدعوهم كذلك الى الاسلام . ويبدو أن ابن سليم لم يوفق فى مسعاه الأخير ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة الى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعلوة ، حيث أنه لا يوجد بين أيدينا ما يفيد أنه زار منطقة البجة .

وبعد عودته الى مصر ألف ابن سليم الأسوانى ، تقريبا فى أوائل خلافة الخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله ، كتابا عنوانه « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » ضمنه وصفا جغرافيا لهذه المناطق وخلفيتها التاريخية مع عرض دقيق لحالتها فى وقت زيارته مع بعض الروايات الأسطورية(٣) . أما وصفه للنيل فيمتاز بالكثير من الدقة ، رغم أنه كان يخضع فيما يبدو أحيانا لتأثير الرواية المنقولة التى تستتر وراء الملاحظة المباشرة . ويوشك هذا الوصف أن يكون الوصف الوحيد فى الأدب العربى الذى يبين لنا المدى الذى وصلت اليه معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل فى هذه الفترة(٤) .

وللأسف فقد هذا الكتاب اليوم وان كان موجودا متداولا بين الناس على الأقل حتى القرن العاشر الهجرى ، فقد حفظت لنا شذرات منه لدى ثلاثة مؤرخين هم : المقريزى فى خططه وابن اياس فى « نشق الأزهار » والمنوفى فى تاريخه ، ولكن أهم هذه النقول وأوسعها هى ما نقله المقريزى فى الخطط .

---

(٢) المقريزى : المقفى (مخ . باريس) ورقة ٢٢٧ .

(٣) المقريزى : الخطط ١ : ١٩٠ ،

Brock., GAL SI, 410, Troupeau G., «La description de la Nubie d'al-Uswàni», Arabica I (1954), pp. 276-288; Yusuf. F. Hasan, EI., art. «Ibn Sulaym al - Uswàni» III, p. 979; Kheir H. M., « A Contribution to a Textual problem. Ibn Suleym al-Uswàni's Kitàb Akhbàr al - Nùba wal - Maqurra wal - Beqa wal - Nil», An. Isl. XXI (1985) pp. 9-72.

(٤) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٢ — ١٩٣ .

وربما من أجل الخلفاء الفاطميين كذلك أن خصص ابن حوقل فقرات مطولة فى كتابه « صورة الأرض » لهذه البلاد فقد كان هذا الجغرافى الرحالة، الذى بدأ رحلته من بغداد فى رمضان سنة ٣٣١ هـ متخذا من التجارة مهنة له(٥) ، كان داعيا سياسيا فى الحقيقة . وقد كان ابن حوقل بلا ريب جاسوسا للفاطميين وان كان ليفى بروفنسال لا يقطع بذلك وانما يراه فقط عميلا للعباسيين أو الفاطميين(٦) . فابن حوقل يبدى دهشته لاحتفاظ الامويين فى الأندلس باستقلالهم حتى هذا الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الاسلامى(٧) . ويمكن أن يؤخذ قوله هذا بمثابة ايعاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل .

ويرى كراتشكوفسكى فى ابن حوقل الخبير الأول من بين جغرافى المدرسة الكلاسيكية العربية فى شئون المغرب وكذلك فيما يخص افريقيا الشرقية ، فهو يورد وصفا مفصلا لمنطقة البجة وتاريخهم ولارتريا مع ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر مع وصف دقيق للواحات(٨) .

والى هذه الفترة كذلك يرجع مؤلف الحسن بن أحمد المهلبى عن المسالك والممالك الذى ألفه للخليفة الفاطمى العزيز ، ولذا فكثيرا ما يرد اسمه فى المصادر بعنوان « المقريزى » . ونحن لا نعرف هذا الكتاب الا عن طريق اقتباسات متفرقة حفظها لنا ياقوت الحموى وابو الفدا . ويمثل هذا الكتاب أهمية حقيقية للسودان الافريقى ، ويتضح لنا من متابعة المقتطفات التى نقلها عنه المؤلفون المتأخرون انه اهتم فى الأساس بأوصاف الطرق وخاصة طرق افريقيا .

وعلى كل حال فقبل استقرار الفاطميين فى مصر نجد أن المؤرخ والجغرافى الشيعى أحمد بن على بن واضح اليعقوبى يقدم لنا فيما بين سنتى ٢٦٠ و٢٧٨ هـ سواء فى تاريخه أو فى كتاب « البلدان » وصفا للمسالك الواقعة الى جنوب مدينة سجلماسة ، وللبلاد الواقعة بين أعالى النيل والبحر الأحمر الغنية بمناجمها ومواضعها الاستراتيجية .

---

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ٣ .
(٦) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٠٤ .
(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ١٠٩ .
(٨) نفسه ١٠٤ — ١٠٧ .

واذا كان وادى النيل يعد طريقا تقليديا للتجارة منذ العصور القديمة ويمثل أهمية دفاعية للدولة الاسلامية ، فالى الغرب من هذا الطريق كان يوجد طريق آخر غير تقليدى وأقل أهمية من الناحية الدفاعية للدولة الاسلامية ولكنه حيوى بالنسبة لتجارتها يمتد من شمال افريقيا تجاه نيجيريا الحالية . ففى الوقت الذى ارتبط فيه تاريخ هذه المنطقة بالصراع بين الفاطميين فى شمال افريقيا وأمويو الأندلس للاستيلاء على رؤوس طرق القوافل الواقعة شمال الصحراء نجد أن ابن حوقل يهتم أيضا بذكر المراكز المسيطرة على هذه المسالك وهى من الشمال الى الجنوب : سجلماسة وأوداغست وغانا بالاضافة الى العناية التى يضفيها على فزان وعلى طريق غانا — مصر القديم(٩) .

وفى نفس الفترة التى بدأ فيها ابن حوقل رحلته نجد المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين قد بدأ فى تدوين كتابه الموسوعى « مروج الذهب » الذى سجل فيه نتائج مشاهداته خلال رحلته التى زار خلالها الكثير من الأقطار . وهذا الكتاب هو فى الأساس كتاب تاريخى وان كان المسعودى نفسه أديب يهتم قبل كل شىء بالعرض الأدبى . ويضم هذا الكتاب بين دفتيه أفضل تصوير للحياتين الثقافية والاجتماعية للدولة الاسلامية فى عصر الخلافة العباسية . وقد رسم المسعودى فى كتابه صورة أمينة لأفريقيا ولنهر النيل(١٠) ، ولكن الأهمية التى يعطيها المسعودى لافريقيا تختلف عن تلك التى شغلت ابن حوقل او ابن سليم الأسوانى ، فهى عنده ترجع الى حجم الدور الذى لعبه بعض أبناء هذه القارة فى أحداث التاريخ الاسلامى وعلى الأخص الدور الذى قام به « الزنج فى جنوب العراق »(١١) .

وآخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية والتى تضم جغرافيين من أمثال : ابن خرداذبه والاصطخرى وابن الفقيه وابن رستة واليعقوبى وابن حوقل ، هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى البشارى الذى يعتبره شبرنجر « أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة » . واذا كانت تشوب هذا الرأى بعض المبالغة فان واحدا من الذين توفروا على

---

(٩) ابن حوقل : صورة الأرض ١٠١ .
(١٠) المسعودى : مروج الذهب ١ : ١١٤ — ١١٥ و٢ : ٦٥ — ٧٣ .
(١١) نفسه : ٥ : ١٠٣ — ١٠٤ .

دراسة كتاب المقدسى وهو كرامرز ، يرى فيه أكثر الجغرافيين العرب أصالة وفى مصنفه « أحسن التقاسيم » واحدا من أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة(١٢) .

وقد قد م المقدسى عن افريقيا معلومات أقل فى القيمة من تلك التى خلفها لنا معاصره ابن حوقل .

وحتى نهاية القرن الرابع كانت النصوص العربية تهتم فى الأساس بافريقيا الشرقية أكثر من اهتمامها بغرب افريقيا . وكما اتضح لنا فان كل المؤلفين الذين سبق ذكرهم هم من المشارقة وهذا لا يعنى أن التأليف فى المغرب الاسلامى قد تأخر ، وانما أخذت مؤلفاتهم الأدبية والجغرافية فقط صبغة محلية ولم تظهر مؤلفات الأندلسيين والمغاربة وتأخذ مكانتها فى المشرق الاسلامى الا بعد منتصف القرن الخامس الهجرى .

وأول هذه المؤلفات واهمها فى مجال الجغرافيا هو مؤلف أبو عبيد البكرى(١٣) الذى يحمل أيضا اسم « الممالك والمسالك » وقد اعتبر دوزى البكرى « أكبر جغرافى أخرجته الأندلس قاطبة »(١٤) ، وقد انتهى من تأليف كتابه نحو سنة ٤٦٠ هـ . وللأسف لم يحفظ لنا نص هذا الكتاب كاملا ولكن مخطوطاته استمرت فى الظهور الى وقت قريب بحيث أن الناقص من الكتاب يعد اليوم شيئا قليلا(١٥) . والجزء الذى خصصه البكرى لافريقيا الشمالية أصبح فى متناول الباحثين منذ أن نشره وترجمه الى الفرنسية دى سلان سنة ١٨٥٧(١٦) . وقد اعتمد البكرى فى وصفه لافريقيا على كتاب مفقود لمؤلف من أهل القرن الرابع الهجرى هو أبو عبد الله محمد بن يوسف

---

(١٢) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٠٨ .

(١٣) انظر كتاب عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، الكويت ١٩٧٤ م . .

(14) Dozy, R. Recherches su L'historie et la litterutuse de é' Espagne pendant le moyen - age, Leiden 1881, I, p. 282.

(١٥) انظر تحقيق عبد الله يوسف الغنيم لقسم جزيرة العرب وقسم مصر من كتاب « الممالك والمسالك » للبكرى ، الكويت ١٩٧٧ و ١٩٨٠ م .

(١٦) نشر بعنوان : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٨٥٧ ، كذلك نشر عبد الرحمن الحجى « جغرافية الأندلس واوربا من كتاب البكرى فى بيروت » ، ١٩٦٨ .

الوراق المتوفى سنة ٣٦٢ هـ الذى ألف نحو هذا التاريخ للحكم المستنصر الأموى كتابا ضخما فى مسالك وممالك افريقيا(١٧) .

واذا ما تركنا البكرى وانتقلنا الى القرن السادس الهجرى نجد أن الأدب الجغرافى العربى قد فقد بعض مكانته فى الشرق الاسلامى ، وأن مغرب العالم الاسلامى أصبحت له الصدارة فى هذا المجال بفضل مؤلف الشريف الادريسى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . ورغم أن الادريسى ، كما يقول كراتشكوفسكى هو أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الاطار العام لتطور الأدب الجغرافى العربى ، فان كتابه أصبح أكثر الكتب العربية رواجا وصيتا فى أوربا اذ ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب كما فعل الادريسى ، وقد مر وقت كان فيه مؤلفه الممثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى فى الدوائر العلمية الأوروبية(١٨) .

وقد ألف الادريسى هذا الكتاب لروجار الثانى ملك صقلية لذلك فانه يعرف أيضا فى الأوساط العلمية باسم « كتاب روجار » . وكان الأصل العربى لهذا الكتاب من أوائل المطبوعات العربية التى أخرجتها مطابع أوروبا فقد طبع أول مرة فى روما سنة ١٥٩٢ . ونقل الكتاب بعد ذلك الى اللاتينية فى سنة ١٦١٩ ، أما الترجمة الفرنسية الكاملة للكتاب فلم تتم الا فى منتصف القرن التاسع عشر وقام بنشرها جوبير أحد علماء الحملة الفرنسية فى جزأين بين سنتى ١٨٣٦ و١٨٤٠ .

وبين هذين التاريخين ظهرت طبعات جزئية للكتاب ، أما الطبعة الكاملة الصحيحة والتى اعتمدت على مقابلة مخطوطاته المختلفة فلم تظهر الا منذ سنوات قليلة بفضل جهود المعهد الجامعى الشرقى بنابولى ومعهد الدراسات الشرقية بروما وظهرت فى تسعة أقسام مع فهارس شاملة ونشرتها مؤسسة بريل بليدن فى الفترة بين سنتى ١٩٧٠ و١٩٨٣ م(١٩) .

---

(١٧) انظر العقدى : الوافى بالوفيات ٥ : ٢٥١ و
Brock., GAL SI, p. 233,

(١٨) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٧٩ .

(19) Al-Idrisi, Opvs Geographicvm (I - IX) Niapoli- Romae 1970-1983.

وأهم أجزاء هذا الكتاب هى تلك التى أفردها الادريسى لافريقيا الشمالية وأسبانيا وصقلية ونواحى ايطاليا الأخرى لأنها تعتمد قبل كل شىء خـلافا للاقسام الأخرى ، على الملاحظة الشخصية للمؤلف . وذلك لأن معلوماته عن مصر مثلا ليست جديدة على الاطلاق لأنه نقلها حرفيا عن كتاب « صـورة الأرض » لابن حوقل .

أما وصفه لافريقيا فلا يخلو من الفائدة رغم أنه يعتمد فيه اعتمادا كليا على وصف بطلميوس . فوصفه لمجرى النيل الغربى ، أى نهر النيجر ، قد أكدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر . كذلك فانه كان على معرفة جيدة بطرق التجارة مع داخل افريقيا وأورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية فى ذلك الوقت مثل : غانا وسلا وبلاد التكرور(٢٠) . وقد وضع المستشرق لألمانى هارتمان فى أواخر القرن الثامن عشر بحثا عن افريقيا عند الادريسى كان له شأنه فى ذلك الوقت وان كان قد عفى عليه الزمان الآن(٢١) .

واذا ما تركنا الادريسى وانتقلنا الى القرن السابع الهجرى نجده قد خلف لنا أكبر معجم جغرافى فى اللغة العربية ، أعنى به « معجم البلدان » لياقوت ابن عبد الله الرومى الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ . وهو اشبه بموسـوعة كبيرة فى الادب والتاريخ والجغرافيا والأجناس مرتبة على أسماء البلدان . وفيما يخص البلدان الافريقية فان المادة التى يقدمها لنا ياقوت محدودة وغير واضحة المصدر .

ويأتى فى نفس الأهمية كتاب « الجغرافيا » لعلى بن سعيد المغـربى المتوفى سنة ٦٧٣ الذى يقدم لنا معطيات هامة عن سواحل افريقيا الغربية والشرقية رغم أنه لم يزرها بنفسه وانما استقى مادته عنها من ملاح عربى لا نعلم عنه شيئا يدعى ابن فاطمة ، وقد أبحر هذا الملاح على طول الساحل الغربى لافريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت متصلا عن طريق نهر النيجر بحوض النيل الذى كان الجغرافيون يضمون اليه فى ذلك الوقت منطقة بحيرة تشاد(٢٢) .

---

(٢٠) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٨٧ .

(21) Hartmann, J. M., Edrisi Africa, Gettingen 1796.

(٢٢) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٣٥٩ .

أما فى شرق افريقيا فان ابن فاطمة بلغ سفالة الزنج على ما يبدو ، وعرف جيدا مدغشقر وربما ترجع اليه تلك الرواية الهامة التى ينفرد بروايتها ابن سعيد والمتعلقة باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر(٢٢) .

وقبل نهاية القرن السادس الهجرى نجد الأدب الجغرافى العربى يستعيض عن كتب المسالك والممالك بنوع آخر من التأليف هـو : كتب الرحلات . حقيقة أن الأدب الجغرافى العربى قد عرف رحلات سابقة على هذه الفترة مثل : رحلة ابن بطلان الى بلاد البلغار ورحلة ناصر خسرو الى مصر والشام وبلاد العرب الا أنهما كانا ينتميان الى مشرق العالم الاسلامى وكانت تحركهما دوافع سياسية للقيام بهذه الرحلات . أما الرحلات التى عرفت بعد ذلك فقد قام بها جميعها ، اذا استثنينا رحلة عبد اللطيف البغدادى الى مصر ، رحالة مغاربة واندلسيون ، وكان الهدف الأساسى لأصحابها هو أداء فريضة الحج ولكنهم استطاعوا خلال رحلتهم الطويلة فى الذهاب والعودة أن يتوقفوا ويقيموا فى العديد من البلاد والمدن التى مروا بها ، وقدمـوا لنا أوصافا دقيقة ومعاصرة لحالة هذه البلاد من خلال زيارتهم لها ، وان اختلفت طريقة العرض من واحد الى آخر . فاذا كان ابن جبير وعبد اللطيف البغدادى يقدمون لنا وصفا حيا للمجتمع والعادات وما شاهدوه من آثار فى البلاد التى زاروها فان رحالة آخرين مثل ابن رشيد الفهرى يقدمون لنا مادة غزيرة عن الحياة الثقافية والعلوم التى كانت تدرس بالمدارس فى مصـر والشام على الأخص فى هذا العصر .

وربما لم يهتم هؤلاء الرحالة بارتياد بلاد افريقيا الداخلية . فيما عـدا واحدا منهم تمكن بعد أن أدى فريضة الحج أربع مرات وتجول فى انحـاء المعمورة تقريبا حيث زار شمال افريقيا ومصر والشام والحجاز واستامبول والموصل وبغداد واليمن والهند والصين وجنوب أوربا ، تمكن من زيارة جوف افريقيا ذلك هو الرحالة المغربى الشهير أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى

---

(23) Ferraud, G., Relation de Voyages et textls Géographigues Arabes, persans et turks relatifs à L'EXtréme - Oriéut du XIII Siscles. paris 1914, pp. 317-320.

الطنجى المعروف بابن بطوطة والذى قام برحلته فى الفترة بين سنتى ٧٢٥ و٧٥٣ هـ(٢٤) .

ففى سنة ٧٥٣ قام ابن بطوطة برحلة الى قلب افريقيا بتكليف من السلطان أبو عنان المرينى مر فيها على سجلماسة وتفازا وتاسرهلا ومسوفة ومالى وزاغرى وكارسخو وكابرة وزاغة وتنبكتو وكوكو ومولى ويفى . وكانت زيارة ابن بطوطة لمالى فى أيام ملكهم منسا سليمان (اى السلطان سليمان) .

وقد ظل وصف ابن بطوطة لافريقيا جنوب الصحراء لا يفضله شىء الى عهد الرحلات الأوروبية فى القرن التاسع عشر .

وفى نفس الفترة التى قام فيها ابن بطوطة برحلته عرفت مصر والشام فى زمن المماليك نمط جديد من التاليف الموسوعى اضطلع به موظفوا ديوان الانشاء المماليكى الذين لم يروا فى انفسهم علماء بل كتابا نابهى الشـــأن اكتسبوا نتيجة خدمتهم فى ديوان الانشاء خبرة كبيرة فى هذا المجال(٢٥) .

ونعد موسوعة شهاب الدين أبى العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » خير ممثل لهذا النمط وهى مصدر من الدرجة الأولى لدراسة عصر المماليك وعلى الأخص المعلومات التى يوردها عن البلاد التى ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة او متقطعة بدولة المماليك . فقد هيأ له عمله الحكومى الاطلاع على الوثائق ولقاء الكثير من الرجال والسفراء ، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغـــاية مما مكنه من اخراج لوحة منفصلة فى وصف العالم المعاصر له .

وقد خصص ابن فضل الله العمرى الأبواب من الثامن الى الحـــادى عشر من النوع الثانى الخاص بالممالك فى ذكر ممالك افريقيا السوداء . فجعل الباب الثامن لذكر ممالك المسلمين بالحبشة ، والباب التاسع لذكر ممـــالك مسلمى السودان على ضفة النيل الممتد الى مصر وهى : مملكة الكانم (منطقة

---

(٢٤) طبعت رحلة ابن بطوطة اكثر من مرة وقـــد رجعت الى الطبعة المصرية بعنوان « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » فى جزاين ، مصر ١٩٢٩ .

(٢٥) راجع مقدمتى لممالك مصر والشام والحجاز واليمن من مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، القاهرة ١٩٨٥ .

تشاد الحالية) ومملكة النوبة ، والباب العاشر لذكر مملكة مالى ، أما الباب الحادى عشر فجعله لذكر مملكة جبال البربر .

وقبل أن نستطرد فى ذكر قيمة ما كتبه العمرى عن ممالك افريقيا نشير الى أن القلقشندى فى القرن التالى اعتمد اعتمادا كليا على موسوعة العمرى فى القسم الذى خصصه فى كتابه « صبح الأعشى » لذكر تاريخ ممالك الاسلام ، غير أنه تميز على كتاب العمرى بدقة التبويب ووضوح العرض ، الا انه لا يمثل عصره تماما اذ هو تكرار لما ذكره العمرى مع شىء من التوسيع والاسهاب وبرسم صورة لما كانت عليه تلك الممالك فى القرن الثامن الهجرى الذى ألف فيه ابن فضل الله العمرى موسوعته(٢٦) .

وهذا القسم لم ينشر بعد فى أصله العربى وانما نقله الى الفرنسية مع تعليقات هامة المستشرق الفرنسى جودفرى دى مومبين سنة ١٩٢٧(٢٧) .

أما آخر المؤلفين الكبار فى محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب فهو الحسن بن محمد الوزان المعروف بجون ليو الافريقى(٢٨) . صاحب كتاب « وصف افريقيا » وقد ولد الحسن الوزان فى غرناطة نحو سنة ٩٠١ ونشأ فى فاس ثم كلفه بنو وطاس بثلاث سفارات دبلوماسية فى جنوب المغرب ، ثم زار مكة فى سنة ٩٢١ ثم استامبول ومصر وعند عودته اختطفه قراصنة مسقليون وحملوه الى نابولى سنة ٩٢٦ ثم الى روما حيث عمده البابا باسم Johannes Leo وألف وهو فى روما عددا من المؤلفات لم يصل الينا منها فى اللغة العربية الا واحدا عبارة عن معجم عربى — عبرى — لاتينى ألفه سنة ٩٣٠ هـ . أما مصنفه الرئيسى فغير معروف الا فى ترجمانه الأوروبية فى حين

(٢٦) القلقشندى : صبح الاعشى ج : ٥ : ٣٧٣ — ٣٣٧ .

(27) Gaudefroy - Demombynes, Masàlik al-Absàr fi Mamà al-Absàr. I. L'Afrique màm L'Egypt, BGA, Paris 1927.

(٢٨) انظر : مقال ماسينيون فى دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الأولى ، ٣ : ٢٢ — ٢٣ وفى الطبعة الثانية ٥ : ٧٢٨ — ٧٢٩ ، كارتشكوفسكى : المصدر السابق ٤٥٠ — ٤٥٥ ، مصطفى مسعد : الحسن بن محمد الوزان (ليو الافريقى) ، أضواء على رحلته فى بلاد السودان ومصر ، مجلة جامعة القاهرة — فرع الخرطوم ١٩٧٠ . وفقد منه الطبعتين العربيتين للكتاب .

أن أصله العربى مفقود تماما ذلك ان الحسن الوزان ترجم كتابه بنفسه الى الايطالية فى ١٠ مارس سنة ١٥٢٦ .

وقد استطاع الحسن الوزان خلال رحلاته العديدة ، التى لا نعرف دوافعه اليها ، أن يتعرف بصورة جيدة على افريقيا الداخلية والشمالية وقد ختم رحلته بذكر الأهداف التى وضعها نصب عينيه أثناء تاليفه مصنفه يقول : « هذا على وجه العموم ما أبصرته من الأشياء الغريبة التى علقت بذهنى أنا جيوفانى ليونى ، عن جميع افريقيا التى عبرتها من اقصاها الى اقصاها ، وقد سجلت بعناية ، يوما فيوما ،كل الأشياء التى رايتها بعينى راسى وبدا لى أنها تستحق الذكر وما لم اره بنفسى بسبب ضيق الوقت او صعوبة الطريق فقد جهدت فى الحصول عليه من اهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم . ثم بذلت جهدى فى جمع شتات هذه المادة وصياغتها فى شكل كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودى بروما وذلك فى اليوم العاشر من شهر مارس لسنة ١٥٢٦ من ميلاد المسيح »(٢٩) .

وينقسم الكتاب الى تسعة أقسام يعالج الأول منها الكلام على افريقيا بصورة عامة وعن سكانها من البدو الرحل ، أما الثانى فيصف نواحى مراكش ومدنها وجبالها بينما أفرد الثالث للكلام على مدينة فاس والرابع لتلمسان والخامس لبجاية وتونس والسادس لطرابلس ، أما السابع فلدول السودان والثامن لمصر . بينما يقدم التاسع وصفا موجزا للانهار والحيوان والأسماك والطيور والمعارف والنباتات الموجودة بافريقيا .

وقليلا ما يشير الحسن الوزان الى مصادره وهى تنحصر فى المسعودى والبكرى والادريسى ولسان الدين ابن الخطيب وابن بشكوال ، أما أكثر نقوله فعن طريق ابن الرقيق الذى الف كتابا فى تاريخ افريقية فى أواسط القرن الرابع الهجرى وايه يدين الحسن الوزان بمعلوماته عن القبائل العربية والبربرية وبقدر كبير من المعطيات المختلفة . وعلى كل حال فان قيمة كتاب « وصف افريقيا » لم تكمن فيما ينقله عن الغير بل فى ملاحظاته الشخصية التى تشكل القسم الأساسى من مصنفه(٣٠) .

---

(٢٩) وصف افريقيا ٦٢٢ (ترجمة عبد الرحمن حميدة) .

(٣٠) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٤٥٣ .

ولقد لقى هذا المصنف الهام اهتماما من الأوساط العلمية الأوربية فترجم الى اللاتينية والفرنسية سنة ١٥٥٦ ثم ترجم حوالى عام ١٦٠٠ الى الانجليزية. أما أحدث نشرات الكتاب فتحقيق شيفر للترجمة الفرنسية والتى ظهرت بين عامى ١٨٩٦ — ١٨٩٨ ونشرة براون للترجمة الانجليزية والتى صدرت سنة ١٨٩٦ . ثم ظهرت طبعة حديثة للترجمة الفرنسية فى سنة ١٩٥٦ قام بها ايبولار .

وللأسف فأن هذا المؤلف الهام ظل بعيدا عن التراث العربى رغم أن مؤلفه صاغه فى أول الأمر باللغة العربية الى أن ظهرت له فى العشر سنوات الأخيرة ترجمتين الأولى فى الرياض سنة ١٩٧٨ بتحقيق الاستاذ عبد الرحمن حميدة ظهرت بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى العربى فى الرياض ثم ترجمة أدق ظهرت فى المغرب وبيروت فى سنتى ١٩٨٠ و١٩٨٣ بعناية الاستاذين محمد حجى ومحمد الأخضر .

obeikan.com